الأبعاد التداولية لاستعارات «القلب» في ترجمان الأشواق (مقاربة معرفية)

Cognitive metaphors of heart "heart" in Tarjoman AL-Ashvagh

سميه كاظمي نجف‌آبادي[1]

قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة أصفهان/Email: s.kazemi@fgn.ui.ac.ir

تاريخ الاستلام: 2020/05/09 تاريخ القبول:2020/07/29 تاريخ النشر:2021/12/26

ملخص :يعتبر «القلب» في إحدى صوره من الظواهر التجريدية التي احتلت مكانة مرموقة في العرفان الإسلامي وقد أزيح الستار عن جانب من حقيقته الغامضة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة بالاعتماد على اللغة الاستعارية التي تأثر بها أهل التصوف والعرفان، إذ إن الآلية الذهنية التي تعتمد عليها الاستعارة في الدرس اللساني الحديث هي الأساس في النظام المعرفي العرفاني الذي تكثر فيه المفاهيم المجردة، وهذه المفاهيم تُعدُّ مما يستحيل التفكير فيه دون استخدام ما نعرفه من الأمور المادية. وابن عربي يعتبر ممن أولى عناية بالغة بالقلب حيث أصبح القلب من اللبنات الأساسية التي تطرق إليها في كتبه المختلفة متأثرا بالقرآن الكريم والأحاديث النبوية، لكنه في ديوان *ترجمان الأشواق* أبدى إليه اهتمام أديب متصوف، مما جعل هذا البحث يركز على الصور الاستعارية المختلفة للقلب في هذا الديوان، للتعرف على مكانة «القلب» والاستعارات الذهنية المكوّنة حوله والتي تجسد أحوال الأديب العارف ونسقه التصوري في تجربته الغزلية في ضوء الاتجاه اللساني المعرفي من خلال نموذج الاستعارة التصورية.

الكلمات الرئيسة: علم الدلالة المعرفي، الاستعارة التصورية، «القلب»، *ترجمان الأشواق*

Abstract: The "heart" is one of the invasive concepts which it has been explained in Qur'an and hadith. The reality of heart occupied a prominent place in Islamic mysticism depending on the Allegorical language, as the mental mechanism in metaphors in the modern linguistic is the basis in the cognitive system in which abstract concepts abound. Ibn Arabi is considered one of the first people who give great care to the heart, The heart has become one of the basic building blocks discussed in its various books, influenced by Qur'an and hadith, But in the Tarjoman AL-Ashvagh, he showed the interest of a Sufi author which made this research focus on the different metaphors of the heart in this poetic effect, so the research intends to studying the concept of the heart in Tarjoman AL-Ashvagh in light of the cognitive linguistic research of Lakoff and Johnson.The results show that cognitive domain of the "heart" in Tarjoman AL-Ashvagh

Key words: Cognitive semantics, Conceptual metaphor, "heart", Tarjoman AL-Ashvagh

المؤلف المرسل: سميه كاظمي نجف‌آبادي1

s.kazemi@fgn.ui.ac.ir

- المقدمة:

تحتلّ الاستعارة مكانة متميزة في اللسانيات المعرفية، فهي لم تعد مجرد زخرف لفظي وإنما أصبحت وسيلة من وسائل الإدراك في ضوء النظريات اللسانية الحديثة التي كانت ثورة على المفهوم التقليدي للاستعارة، كنظرية الاستعارة التصورية. وكان للايكوف وجونسون إسهام بارز في هذه الثورة التي اقتحمت العلوم المعرفية واللسانية، ووفقا لنظريتهما التصورية صارت الاستعارة عملية إدراكية "حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية [وهي] ليست مقتصرة على اللغة، بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها" (لايكوف وجونسون، 2009م: ص21).

ولا غرو أن الاستعارة في الخطاب الديني لها وظائف معرفية؛ فالخطاب الديني مشحون بالمفاهيم التجريدية المتافيزيقية، ولا يمكن إدراك ما يكمن وراء بعض الألفاظ والمصطلحات الدينية من الأبعاد الدلالية إلا بالتفاعل الذهني مع ما يحيط بنا، كما أن الخطاب الصوفي أو العرفاني لطبيعته الإشارية وما له من الكلام عن الإدراكات الباطنية التي يستعصي فهمها يعتمد اعتمادا وافرا على الاستعارة في تمثيل الأمور العقلية والمفاهيم المجردة لتتوفر إمكانية فهمها وإدراكها.

و«القلب» من المفاهيم التجريدية التي يصعب التعرف على حقيقتها إلا بالاعتماد على الصور الذهنية والبنى التصورية، ولأهميته في الخطاب الديني خاصة في القرآن الكريم نجد له شبكة استعارية تقرّب معناه إلى الذهن. وقد احتلّ في العرفان الإسلامي مكانة هامة ولصعوبة فهم حقيقته أصبح محلّ آراء متباينة ومتضاربة خاصة فيما يتعلق بتبيين علاقته بـ«الروح»، و«النفس»، و«العقل». ويندر العثور على رسالة عرفانية لم تتطرق إلى ماهية «القلب» وخصائصه، فهو مصدر المكاشفات في العرفان الإسلامي، وله في الخطاب الصوفي من السمات والخصائص ما يجعله محورا في مجال الإبداع للأديب الصوفي ليخلق الترابطات غير المسبوقة ويتجه نحو بناء تصورات جديدة تدور حول محوره. وهذا الأمر يؤدي إلى تطوير الأنساق التصورية التي يحتفظ بها الأديب ويشكل شبكة معرفية تفتح المجال لكشف الزوايا الخفية لهذه الظاهرة التي تحتلّ الصدارة في الخطاب الصوفي والعرفاني وهي تنتمي إلى عالم المجردات فلا يمكن فهمها وإدراكها دون الاستناد إلى عالم المحسوسات.

والجدير بالذكر أن محيي الدين ابن عربي – وهو من الشخصيات الأفذاذ في عالم التصوف والعرفان – قد تحدث عن «القلب» وسماته في معظم مؤلفاته *كالفتوحات المكية* و*فصوص الحكم* كما أنه خصّص كتابا بالقلب وسمّاه *ماهية القلب*، فأسهب الكلام فيه عن حقيقة القلب بالاستناد إلى الآيات والأحاديث المروية عن النبي (ص)، لكنه في ديوان *ترجمان الأشواق* حاول الربط بين «القلب» ومجموعة من المظاهر الأخرى من خلال بناء تصور ذهني، فالمتلقي بمتابعة أشعار ابن‌عربي في ديوانه يجد نفسه أمام بنية فكرية خاصة يأخذ فيها كل مصطلح صوفي هام مكانته الخاصة. ويمكن القول إن ابن عربي من خلال نشاطاته الفكرية وبنيته العقلية بالإضافة إلى قيمه الثقافية ومعرفته القرآنية شكّل شبكة تصورية خاصة في تجربته الغزلية في *ترجمان الأشواق*.

نظرا لأهمية «القلب» في الخطاب الصوفي ركّز البحث في ضوء الاتجاه العرفني على الصور الذهنية التي اعتمد عليها ابن عربي في إبداعه الأدبي الشعري في *ترجمان الأشواق* مما يبيّن نظرته الصوفية وطريقته في التفكير، وذلك من خلال نظرية الاستعارة التصورية للايكوف وجونسون.

والبحث عبر المنهج الوصفي – التحليلي يحاول الإجابة عما يلي:

أ) ما هو دور الاستعارة التصورية المكوّنة حول القلب في *ترجمان الأشواق*؟

ب) ما هو أهم أنواع الاستعارات التصورية التي تجسّد طريقة تفكير ابن عربي فيما يتعلق بالقلب؟

أما الدراسات التي تشكّل خلفية هذا البحث لا تمتّ بصلة مباشرة إلى البحث الراهن وإنما هي تتمحور حول الاستعارات التصورية وتطبيقها على بعض النصوص الأدبية شعرا أو نثرا، كمقالة مرتضى قائمي بعنوان: «توظيف الاستعارة المفهومية لتكوين المنظومة الأخلاقية في نهج‌البلاغة؛ التقوى وهوى النفس أنموذجا (على أساس اللسانيات المعرفية)»؛ وقد تحدث فيها الباحث عن دور الاستعارات المفهومية في المنظومة الأخلاقية *لنهج‌البلاغه*، وكذلك مقالة بعنوان «الاستعارة في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ "دراسة معرفية"» لكمال الزماني، حيث يدرس الباحث النص الروائي المذكور وفق نظرية الاستعارة التصورية للايكوف وجونسون.

2- نظرية الاستعارة التصورية:

كانت الاستعارة قبل ظهور اللسانيات المعرفية تعتبر ظاهرة لغوية ذات طبيعة شعرية وبلاغيةٍ تحتكر في الأعمال الأدبية الإبداعية، وتحظى باهتمام بالغ من النقاد والبلاغيين، ولكن بعد أن ظهرت اللسانيات المعرفية كتيار لساني يقوم على دراسة العلاقة بين اللغة البشرية والذهن والتجربة (الزناد، 2011م: ص22)، بدأت تظهر ملامح إعادة النظر في طبيعة الاستعارة ودورها المعرفي، فكشفت اللسانيات الحديثة عن ثورة على التقاليد البلاغية الموروثة عن أرسطو وعلى النظرة الكلاسيكية للاستعارة، فتحرّرت الاستعارة عن قيود الدرس البلاغي وأصبحت آلية في التفكير.

ومن بين المحاولات اللسانية المعرفية، تعتبر نظرية الاستعارة التصورية أو المفهومية من النظريات الاستعارية المعاصرة التي دعا إليها لايكوف وجونسون في كتابهما المشترك *الاستعارات التي نحيا بها*. وفقا لهذه النظرية أصبحت الاستعارة عملية إدراكية قائمة في نسقنا التصوري، فهي لا ترتبط باللغة أو بالألفاظ فقط وإنما سيرورات الفكر البشري تعدّ استعاريا في جزء كبير منها (لايكوف وجونسون، 2009م: ص23). يقول لايكوف وجونسون: "إن أنساقنا التصورية العادية التي نفكّر بها ونعمل على ضوءها، هي أساس أنساق استعارية في طبيعتها" (المصدر نفسه، ص3)، بناء على هذا تُعدّ الاستعارة عملية إدراكية كامنة في الذهن تؤسس أنظمتنا التصورية وتحكم تجربتنا الحياتية فهي عملية تقوم على استغلال آلة الذهن في إدراك ما حولنا بخلق مجال مشابه له يؤدي إلى تصور ما لا نستطيع أن ندركه لطبيعته الخيالية أو أننا لم نره قط (سليمان أحمد، د.ت: ص59)، ذلك أن جوهر الاستعارة يكمن في فهم نمط من الأشياء والتعامل معه من خلال نمط آخر (المصدر نفسه، ص41)، فبالاعتماد عليها نتصور مجالا ذهنيا معينا بواسطة مجال ذهني آخر. يسمّى الأول المجال الهدف الذي يجرى مجرى المستعار له والثاني المجال المصدر الذي يجري مجرى المستعار منه، فعلى سبيل المثال في جملة «أملك بعض الوقت»، يعود التعبير إلى مستوى تصوري واحد وهو «الزمن مالٌ»، فندرك بهذا التعبير الاستعاري مفهوم الزمن في إطار مفهوم المال.

والاستعارات التصورية تنقسم عند لايكوف وجونسون إلى نوعين؛ الاستعارات الوضعية وهي الاستعارات التي تكون حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية وفي لغتنا العادية، وتمّ تصنيف هذه الاستعارات إلى ثلاثة أصناف:

أ/الاستعارات البنيوية وهي الاستعارات التي يُبنين فيها تصور ما استعاريا بواسطة تصور آخر، كـ«الحرب جدال» (لايكوف و جونسون، 2009م: ص33).

ب/ الاستعارات الأنطولوجية وهي عملية عقلية يتم فيها فهم غير المنظور بالشيء المنظور والمفهوم لدينا من خلال تجاربنا معه (سليمان أحمد، د.ت: 45)، وإنها تعطي طرقا للنظر إلى الأحداث والأنشطة والاحساسات والأفكار باعتبارها كيانات ومواد (لايكوف وجونسون، 2009م: ص309). وقد انقسمت إلى استعارة التشخيص، واستعارات الكيان والمادة.

ح/ الاستعارات الاتجاهية وهي الاستعارة التي "تعطي للتصورات توجها فضائيا كما في التصور التالي: «السعادة فوق»" (المصدر نفسه، ص34).

ولكن قد تتداخل الاستعارات في تعبير واحد، فينتمي التعبير إلى أكثر من مستوى تصوري، فبهذا أصبح هذا التصنيف محلّ النقد والمعارضة من قبل بعض النقاد.

أما الاستعارات غير الوضعية فهي الاستعارات الإبداعية التي نجدها في كلام المبدعين من الشعراء والأدباء (الزماني، 2015م: ص66–69)، فلا تكون الاستعارة الأدبية إلا تجليا من تجليات الاستعارة التصورية، وهي توسيع للاستعارات المستخدمة في المحادثات اليومية. يرى لايكوف وتيرنر أن "الشعراء يمكنهم التوسل بالاستعارات العادية التي نحيا بها من أجل أخذنا أبعد منها لجعلنا أكثر تبصرا مما كنا عليه لو كنا نفكر فقط بطرق عادية" (لايكوف وتورنر، 1989م: ص87)، فالاستعارات الأدبية لها تأثير عظيم في الإبداع وتأويل المعنى وكذلك في زيادة الإثارة لجلب اهتمام المتلقي.

3– مقاربة معرفية لاستعارة «القلب» في *ترجمان الأشواق*:

قبل البدء بالحديث عن أبعاد «القلب» الاستعارية في *ترجمان الأشواق* لابدّ من إشارة موجزة إلى معنى «القلب» لغة واصطلاحا، فقد ورد في المعاجم اللغوية أن القلب "تحْويلُ الشيء عن وجهه"، و"قلب كل شيء لبّه وخالصه ومحضه" (ابن‌منظور، 1988م: «قلب»؛

الزبيدي، 1994م: «قلب»)، لكنه في الاصطلاح يستعمل في مفهومين متباينين ماديا ومعنويا، فهو في المصطلح المادي "عضو عضليّ أجوف يستقبل الدّم من الأوردة ويدفق بالشرايين" (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 2011م: «قلب»)، ولكن الحديث عن حقيقته المعنوية ينتهي بنا إلى تباين الآراء وتضاربها بين أصحاب المعاجم وأهل الفلسفة والعرفان، فالـ«القلب» عند العارف المتصوف خلافا لما يعتقده الفيلسوف، أداة الإدراك والفهم؛ فهو البؤرة التي تتجلى فيها المعرفة (ابن‌عربي، 2009م: ص9)، وأداة لمعرفة الحق وتيقّن المغيبات العلوية والسفلية.

ولا غرو أن الخطاب الصوفي العرفاني قد تشكّل قوامه في ظل القرآن الكريم والأحاديث الشريفة حيث نجد فيهما إيحاءات معرفية كثيرة عن القلب، وقد ورد في مواضع عديدة من النصوص الدينية ما يفسّر حقيقة القلب، مثلما ذُكر في *نهج‌البلاغة* في وصف القلب حيث يقول الإمام علي (ع): "لقد علّق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب ما فيه وذلك القلب. وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها، فإن سنح له الرجاء أذله الطمع، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص..." (نهج البلاغة، الحكمة 108: ص648).

والقلب في التصوف يعتبر رمزا من الرموز الصوفية يكنى به عن مقام التلوين والتحول من حال إلى حال (ابن عربي، 1425: ص48). وابن عربي رغم ارتكازه على «القلب» في معظم مؤلفاته، لكنه في ديوان *ترجمان الأشواق* يكشف عن تجربة شعرية يدور في فلك التغزل، ويحاول فيه الربط بين الغزل العذري والتصوف. و«القلب» في هذا الديوان ينتمي إلى شبكة استعارية توضّح رؤية ابن‌عربي الغزلية وهذه الشبكة التصورية تجلّت وفقا لنظرية الاستعارة التصورية على ما يلي:

3-1- القلب وعاء:

"يعتبر الاحتواء الفيزيائي أهمّ ما يميّز تجربتنا الجسدية، وجسدنا هو النموذج الطرازي للوعاء (...) إضافة إلى ذلك فنحن نتعامل جسديا مع الأشياء باعتبارها أوعية، وتفاعلنا مع محيطنا يكشف عن هذه الأوعية التي تحكم تجربتنا الحياتية" (البوعمراني، 2009م: ص107-108)، فكل ما نقوم به يتميز باشتراكه في بنية مشتركة مؤسسة على الاتجاه داخل – خارج (المصدر نفسه، ص108). تندرج استعارة الوعاء، تحت الاستعارة الأنطولوجية، وهي

من أشهر الاستعارات التصورية وأكثرها استخداما في *ترجمان الأشواق*، وقد تجلت في أبياتٍ منه، حيث يتعامل ابن عربي مع «القلب» باعتباره كيانا له حدود، وهو بمثابة الوعاء الذي له داخل وخارج. وتتفرع من هذه الاستعارة، استعارات أخرى وردت فيما يلي:

القلب وعاء للحزن

وبلّغيهم سلاما من أخي شَجَنٍ في قلبه من فراق القوم أشجانُ

(ابن عربي، 1425: ص48)

أصبح القلب في هذا البناء التصوري بمثابة وعاء يظهر فيه الحزن والشجن إثر ما يطرأ على الإنسان عند الفراق. والحقيقة أن القلب يعتبر مركزا للأحاسيس والأحوال الباطنية، كالفرح، والعطف، والرحمة، والاطمئنان، والإيمان، والأنس، والحزن، والكذب، والخوف، والحسرة، والطمع، والضلال، والنفاق وغيرها، فكأنه وعاء تقع فيه هذه الأحاسيس وهذا ما يجعل هذا النسق التصوري قريبا إلى الذهن عند المتلقي. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الميزة في تصاويره الاستعارية عن القلب، حيث أصبح القلب وعاء للأحاسيس الحسنة والسيئة؛ وعاء للرأفة والرحمة والسكينة في قوله تعالى: Πوَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَاO (الحديد 27: 57)، وΠهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَO (الفتح 48: 4)، ووعاء للحمية في قوله عزّ وجلّ: Πإِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِO (الفتح 48: 26).

وفي *ترجمان الأشواق* قد بنين مفهوم القلب في ضوء مجال الوعاء في الاستعارات التالية، حيث أصبح القلب وعاء للنار:

القلب وعاء للنار

روته الصبا عنهم حديثا معنعنا عن البثّ عن وجدي عن الحزن عن كربي

عن السكر عن عقلي عن الشوق عن جوى عن الدمع عن جفني عن النار عن قلبي

فقلت لها بلّغ إليه بأنه هو الموقدُ النارَ التي داخل القلب

فسرتْ وفي القلب من أجلهم جحيم لبينهم تستعر

(ابن عربي، 1425: ص75، 76، 174)

يسبّب الشوق والحبّ والهيام في البيت الثاني والثالث وفراق الأحبة في البيت الرابع، حرارةً في القلب فكأنه يشعل فيه نارا يحرق القلب، فهذه الاستعارة التصورية تسمح بفهم المجرد في ضوء المحسوس. رغم أن "النار في القلب" رمز صوفي عن الروح الخارج عن تجويف القلب (ابن عربي، 1425: ص76)، عند الأديب المتصوف، ولكن في هذه الأبيات تجسمت النار في هيئة المظروف في ظرف القلب، وانتمت الأبيات الثلاثة إلى استعارة لغوية هي «القلب وعاء»، وكذلك قد تحوّل القلب في نظام ابن عربي التصوري إلى وعاء للنور في البيت التالي:

القلب وعاء للنور
يـــا أيهـــا البيـــت العتيـــق تعـــالى نـــور لكـــم بقلوبنـــا يـــتلالا

(ابن عربي، 1425: ص137)

انطلق هذا البيت من استعارة تصورية هي «القلب وعاء»، حيث يمثّل الوعاء، المجال الهدف الذي يراد فهمه وهو «القلب»، فالقلب يصبح وعاء يتجلى فيه النور الذي يتلألأ من البيت العتيق وهو قلب العبد العارف التقي الذي وسع الحق سبحانه حقيقته (ابن عربي، 1425: ص139). وقد صار القلب في الأبيات التالية وعاء يخصّ الأحباب ليسكنوا فيه، حيث يقول الشاعر:

القلب مكان للأحباب
بـــان العـــزاء وبـــان الصـــبر إذ بـــانوا بانوا وهم في سويداء القلب سكانُ
وقالـــت: أمـــا يكفيـــه أنـــي بقلبـــه يشـــاهدني فـــي كـــل وقـــت أمـــا أمـــا

(ابن عربي، 1425: ص47، 43)

في هذه الأبيات تجلّت استعارة تصورية هي «القلب وعاء»، أو تفريعها المقولي «القلب مكان للأحباب»، وتكون هذه الاستعارة التصورية جزءا من حياتنا وتصوراتنا في الحياة؛ فمن نحبّه ساكن في قلوبنا وقد اتخذ مهجة القلب بيتا ليكون قريبا منا. هذه الاستعارة متغلغلة في تجاربنا الحسية؛ فلا وجود للمعنى بعيدا عن عالمنا المتجسد؛ فنحن ندرك العالم ونفهم الأشياء من حولنا انطلاقا من حضورنا الجسدي في الزمان والمكان (سليمان أحمد، د.ت: ص58). وقد أصبح القلب مكانا من الأمكنة المقدسة في ضوء المنهج الاستعاري في الأبيات التالية:

القلب مكان مقدس
مُخَصَّـــبهم قلبـــي لرمـــي جِمـــارهم ومنحـــرهم نفســـي ومشـــربهم دمـــي

تطـوف بقلبـي سـاعة بعـد سـاعة لوجـد وتبـريح وتلـثم أركـاني

(ابن عربي، 1425: ص36، 60)

يحاول ابن عربي في هذه الأبيات أن يتخطّى اللغة ويأتي ببناء استعاري يحتضن رؤاه؛ فالـ«محصَّب» في البيت الأول موضع رمي الجمار بمنى (مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 2011م، «حصب»)، وقد أصبح القلب محصّب الأحباب ممن يصفهم الشاعر في الأبيات السابقة بأن لهم صيامه وحجّه واعتماره وموسمه، ثم يعّرفهم في الشرح أنهم الحقائق الإلهية الواردة على القلب، ورمي جمارهم هو ما يحصبون به الخواطر النفسانية والشيطانية (ابن عربي، 1425: ص35–36)، فأصبح إدراك «القلب» ممكنا في ضوء المجال المصدر وهو «المحصَّب».

وفي البيت الثاني يخلق شاعرنا المتصوف التوافق والترابط المعرفي بين الكعبة والقلب لبنينة النسق التصوري الجديد؛ فالمتلقي يفهم الثاني في ضوء الأول ويكتمل بناؤه التصوري. وقد وظّف ابن عربي هذه الاستعارة واستند القلب إلى مجال أكثر وضوحا وهو الكعبة وذلك من خلال استعمال الفعل الدال على الكعبة وهو «تطوف»، ليقترب المعنى الذي يريده إلى الذهن. هذه الاستعارة التي تمشي وفق نسقنا التصوري تعطينا إدراكا جديدا عن النظام المفهومي الذي يتبعه ابن عربي في تعريف القلب. ومن أجمل الاستعارات التصورية التي تحدّد وضعية الظرف والمظروف في ديوان *ترجمان الأشواق* ما يلي:

القلب مغرب لشمس المعشوقة ألـيس مطلعهـا وهمـي ومغربهـا قلبـي فقـد زال شـؤم البـان والغَـرَب

(ابن عربي، 1425: ص189)

في هذا البيت يشير ابن عربي إلى المعرفة الإلهية التي تتجلى في الصور في عالم التمثل وتغرب في القلب والقلب محل المعرفة بالله ومجلى التجلي الإلهي، حيث يقول الله تعالى: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن» (ابن عربي، 1425: ص189)، فالقلب ظرف يتسع اتساعا تستقر فيه المعرفة الإلهية، وقد أشار ابن عربي إلى ذلك في

فصوص الحكم حيث يقول: "إذا كان الحق يتنوع تجليه في الصور، فبالضرورة يتسع القلب ويضيق بحسب الصورة التي يقع فيها التجلي الإلهي" (ابن عربي، د.ت: ج1، ص120).

فقد انتمى هذا البيت إلى الاستعارة التصورية «القلب وعاء» أو تفريعها المقولي «القلب مغرب»، وأصبح المغرب المجال المصدر الذي يسهم إسهاما بارزا في بناء صورة عن القلب في الذهن؛ صورة أصبحت ذات حدود واضحة جلية بتصور المغرب. كثرة النماذج في هذا النوع من الاستعارة التصورية تؤكد لنا أن الاستعارة «القلب وعاء» هي الاستعارة المهيمنة في خطاب ابن عربي.

3-2- القلب إنسان:

تعتبر استعارة التشخيص (personification) في علم الدلالة المعرفي من أبرز أنواع الاستعارات الأنطولوجية، ففي هذه الاستعارة نتعامل مع الأشياء التي حولنا كما لو أنها شخص، فبذلك نعطي خصائص بشرية لأشياء أو كائنات غير بشرية. والقلب من المفاهيم التجريدية التي يسهل فهم طبيعتها اعتمادا على صفات الإنسان الجسدية والباطنية، وقد تجلّى بعض هذه السمات والصفات في ديوان *ترجمان الأشواق*:

للقلب صفات الإنسان الجسدية أو أعراضه الجسدية كالرؤية، والعلة

سامريّ الوقت قلبي كلما ... أبصر الآثار يبغي المذهبا

كأن الرعودَ للمع البروق ... وسيرَ الغمام لصوب المطر

وجيبُ القلوب لبرق الثغور ... وسكبُ الدموع لركب نفَر

ودادي صحيح فيك يا غاية المنى ... وقلبي من ذاك الوداد عليل

(ابن عربي، 1425: ص157، 175، 209)

يتمحور البناء الاستعاري في الأبيات الثلاثة أعلاها حول السمات والأعراض الجسدية للإنسان، إذ إن جسد الإنسان هو محور العالم والإنسان يقيس عليه معارفه وهو محطّ تجاربه ومرجعه الدائم للفهم (سليمان أحمد، د.ت. ص58)، فـ"لا وجود للمعنى أو الخيال أو لأشد مفاهيمنا تجردا خارج الجسد، أو خارج إدراكنا المتجسد للعالم، فالجسد هو مدخل الإنسان إلى

العالم، ذلك أن واقعنا يتخذ هيئته وصورته عن طريق نموذج حركتنا الجسدية وعن طريق حركتنا في الزمان والمكان وعن طريق شكل تفاعلنا مع الأشياء في هذا العالم" (البوعمراني، 2009م، ص91–92). وقد تجسّد القلب في البيت الأول في هيئة «إنسان يُبصر»، وفي البيت الثاني في صورة «إنسان يصيبه الاضطراب والرجفة»، وفي البيت الثالث صار القلب كـ«إنسان عليل». رغم أن التعبير الثاني استعاريٌ، ولكن لكثرة استعماله في اللغة والأدب أصبح بمثابة تعبير لغوي حقيقي.

ففي هذه الأبيات تمّ تمثيل مفهوم القلب على أساس أعضاء الجسد، فأصبح الإنسان وأعضاء جسده مجالا هدفا يسمح لنا أن ندرك من خلال تفاعلنا الحسي ما يصعب إدراكه لانتماءه إلى عالم المجردات. وهكذا نتصور القلب في نسق ابن عربي التصوري بوصفه إنسانا له عين يبصر بها الأشياء والآثار وكلما رأى قلبه أثرا أراد اختيار مذهبٍ، وكلما أبصر المعارف التي تحملها حقائق الأرواح العلوية أراد الإفادة منها (ابن عربي، 1425: ص157)، ففي هذا البناء التصوري للقلب عين يبصر بها، كما للجسد، لكن القلب يبصر ما لا يمكن رؤيته بعين الجسد. وفي البيت الثاني يتمّ تمثيل مفهوم القلب على أساس جسدي فيزيولوجي وهو الارتعاش والرجفة. أما البيت الثالث فقد صار فيه القلب كالجسد البشري الذي يصيبه المرض والعلة، فالشدة والضيق الذي يشعر به القلب إثر الحبّ والوداد جعله يمرض مثلما يمرض الجسم. وقد تجلّى مثل هذا البناء التصوري الخاص بمرض القلب في البيت التالي من الديوان:

القلب يصيبه المرض

واســـمعا مـــاذا يجيبـــون بـــه وأخبـرا عـن دَنَـف القلـب بمـا

يشـــتكيه مـــن صـــبابات الهـــوى معلنـــا مســـتخبرا مســـتفهما

(ابن عربي، 1425: ص168)

حيث نُسبت فيه الخصائص البشرية لأمر مجرّد ألا وهو القلب، وقد وظّف ابن عربي استعاريا بعض السمات والصفات الباطنية للإنسان في الأبيات التالية:

للقلب صفات

تهـــوي فتصـــد كـــل قلـــب هـــائم يهـــوي الحســـان براشـــقٍ ومهنـــدِ

الإنسان الباطنية كالهيام، والجهل

إذا خلص القلب من جهله ... فما هو إلا نزول الملَك

(ابن عربي، 1425: ص115، 202)

في هذين البيتين تتجسم استعارة «القلب هائم يهوي الحسان»، و«القلب جاهل»، والمجال المصدر هو الإنسان الذي يتصف بالهيام والجهل، وهما من السمات البشرية التي أسندت إلى القلب، فالحبّ والهيام وعاءه القلب فإن وقع في ظرف القلب يصبح الإنسان هائما. وفقا لهذا النسق التصوري والتوافقات الموجودة بين المجالين، تجلّى القلب في هيئة إنسان يرى ويعشق.

أما الجهل فهو مما يوصف به العقل ولا رابط بينه والقلب إلا من خلال التصور الاستعاري الذي يجعل القلب متصفا بالجهل، ويسهّل إدراك طبيعته حسب ما ينوي ابن عربي، فالقلب بعدما يتخلص من الجهل يصبح منزلا للعلم وتتنزل فيه الروحانيات العلى، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني توظّفت استعارة الوعاء حيث تمّ التعبير عن القلب بمكان ينزل فيه الملاك.

وقد تمثل القلب استعاريا في ثوب إنسان يقوم ببعض الأفعال البشرية في الأبيات التالية:

للقلب أفعال إنسانية كالمواعدة وتصديق الوعد، والمفارقة ونصب الخيام

وواعدن قلبي أن يرجعوا ... وهل تعد الخودُ إلا غرورا

واندبا قلب فتى فارقه ... يوم بانوا وابكيا وانتحبا

فإذا ما جئتما وادي منى ... فالذي قلبي به قد خيّما

أبلغا عني تحيات الهوى ... كلّ من حلّ به أو سلّما

(ابن عربي، 1425: ص83، 151، 167)

إن الاستعارة في هذه الأبيات تسمح لنا بفهم التجارب المتعلقة بكيان غير بشري كالقلب عن طريق ما هو معروف ومحسوس من الخصائص البشرية، فنلاحظ بوضوح أن القلب في هذه الأبيات يتصرّف تصرّف الإنسان، فتُواعده الغانيات وهو يسمع الوعد ويخضع لقبوله ويفارق الجسم أو ينصب الخيمة؛ فالاعتماد على هذا البناء التصوري يجعل إدراك ماهية القلب في ضوء هذه الأفعال التي يقوم بها الإنسان أمرا ممكنا ويسيرا، فيصبح الإنسان بأفعاله المختلفة

مرجعا لإدراك القلب عبر الصور الذهنية، "فالفكر البشري يتكون ويتبلور ويكتمل بناء على تجربة الفرد الجسدية في العالم، وأساس هذا النظام المفهومي متجذر في الإدراك، وحركات الجسد في محيطه وفي جميع التجارب والتفاعلات الاجتماعية والمادية، فالفكر ذو طبيعة أرضية إدراكية جسدية" (الزناد، 2010م، ص141).

والجدير بالذكر أن تجسيد القلب في هيئة الإنسان والتفاعل معه على أساس الصفات والخصائص البشرية أمر تطرّق إليه القرآن الكريم في عدة مواضع مما أثّر فيما يليه من النصوص الصوفية، حيث يقول الله تعالى في كتابه المنزل: Πأَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِO (الحج 22: 46)، فالقلب في هذه الآية ليس العضو اللحمي الصنوبري وإنما هو أمر مجرّد تمّ تصويره استعاريا في هيئة إنسان يتمتع بالعقل والعين كما يتمتع بهما الإنسان ويفقدهما عندما يصيبه ما يبعده عن الحقّ.

3-3- القلب طائر

تندرج الاستعارة التصورية «القلب طائر» ضمن الاستعارات الأنطولوجية، وقد تجلّى هذا التعبير الاستعاري في البيت التالي:

فيا حادي الأجمال رفقا على فتى تراه لدى التوديع كاسر حنظل

يخالف بين الراحتين على الحشا يسكن قلبا طار من صرّ محمل

(ابن عربي، 1425: ص181)

يصف ابن عربي في هذا البيت حاله عند فراق الأحباب ويشبهه بحال الذي يكسر الحنظل ويخالف بين الراحتين ويمسك جانب اليمين بالشمال وجانب الشمال باليمين ليسكن خفقان قلبه الذي يودّ الرحلة خلف الأحبة (المصدر نفسه: ص181). وهذا القلب المجرد تمّت بنينته في ضوء مجال الطائر، وبما أن هذا المجال قائم في نسقنا التصوري وقريب إلى أذهاننا يساعدنا لندرك مفهوم القلب، كما ندرك شيئا ماديا وذلك وفق رؤية أديبنا المتصوف. وقد تمّ

تفعيل أجزاء محددة من المجال المصدر في فهم المجال الهدف، فمفهوم القلب تجلّى في ضوء عناصر محددة من مجال الطائر كالسرعة والخفقان وصولا إلى الغاية المبتغاة.

3-4- القلب نبات

مجال النبتة، مجال قائم في نسقنا التصوري وواقع في تجاربنا وتفاعلاتنا في الحياة وقد استخدمه ابن عربي كالمجال المصدر الذي يعضده في إيصال فكرته البديعة إلى المتلقي في البيت التالي:

لقـــد فلقـــتْ حبـــةَ القلـــب إذ رماهـــا بأســـهمها الفـــالقُ

(ابن عربي، 1425: ص161)

وظّف ابن عربي في هذا البيت استعارة تمّ فيها الاستناد إلى مجال "النبتة" الذي يشكّل جزءا من نسقنا التصوري لفهم القلب وذلك من خلال توافقات وترابطات تبنيها الاستعارة بين المجالين. فهو يصف المعشوقة التي تتوق إليها الأفئدة ويشرق الليل من نورها بالفالق الذي بنظرة من عينيه يفلق حبة القلب، فتنمو النبتة وتزدهر وتتجلّى فيه الصفات الإلهية، فالقلب الذي ينتمي إلى عالم المجردات، أصبح فهم طبيعته وفقا لرؤية ابن عربي سهلا يسيرا عن طريق خصائص النبتة؛ فالتغيير الذي يحدث للحبّ عندما يفلقه فالق الحبّ والنوى فكذلك يحدث لحبة القلب عندما تنظر إليها المعشوقة.

3- 5- القلب مالٌ

إن ابن عربي يصوّر القلب في البيت التالي كشيء ثمين يملكه الإنسان:

ليـــــت شـــــعري هـــــل دَرَوا أيَّ قلـــــــــبٍ ملكـــــــــوا

(ابن عربي، 1425: ص27)

هذا التعبير الاستعاري يقوم على فهم مجال القلب وتصوره في ضوء مجال المال وهو المجال المصدر، وقد اعتبر القلب من البضائع الثمينة التي تستهلك وتستثمر، وكثيرا ما يُستعمل مثل هذا التصور الاستعاري في التعابير اليومية بأن يكون القلب مالاً يمكن امتلاكه كقولنا: «ملكتَ قلبي»، ومن خلال ما نعرف عن المال وقيمته في الحياة صار التفكير في

القلب وتصوره كشيء ثمين أمرا قريبا إلى الذهن، فجزء كبير من الشبكة التصورية التي ترتبط بالمال كقيمته وحرية التصرف فيه ينطبق على القلب الذي أصبح مما يمتلك.

3- 6- القلب مرآة:

يحاول الإنسان إدراك ما لا يمكن رؤيته من خلال تجسيده في شكل أشياء مادية ليتعامل معه؛ فبذلك يمكن القول إن التجسيد ضرورة للفهم، فـ"عالم الأشياء المادية معروف لدينا معرفة جيدة، بينما عالم الأفكار هو عالم مجرد يستحيل التفكير فيه دون استخدام ما نعرفه من الأمور المادية، وهنا يأتي دور الاستعارة حيث ننقل ما نعرفه من الظواهر المادية لنشكّل ما لا نعرفه من الظواهر غير المادية والتجريدية" (الحراصي، 2002م، ص20). واستعارة "القلب مرآة" تندرج ضمن الاستعارة التصورية "القلب شيء" وهو من الاستعارات الأنطولوجية التي تحصل من خلال تجاربنا مع الأشياء الفيزيائية، وقد تجلّت هذه الاستعارة في البيت التالي من ديوان *ترجمان الأشواق*:

لقـد صـار قلبـي قـابلا كـلّ صـورة فمرعـى لغـزلانٍ وديـرٌ لرهبـانِ

(ابن عربي، 1425: ص62)

تتنوع في هذا البيت أحوال القلب وتتبدل بتنوع الواردات عليه، فهو يقبل كل صورة، فيعكس حينا منزل الأحباب وفي حين آخر يُظهر دير الرهبان، فكأنه مرآة تختلف تجلياته حسب ما يطرأ عليه. حاول ابن عربي من خلال استخدامه لهذه الاستعارة أن يجعل مفهوم القلب أكثر وضوحا وإدراكا ولذلك لجأ إلى الاستعارة التصورية "القلب مرآة"، ليشير إلى استعداد القلب في انعكاس التجليات الإلهية. وهو في *فصوص الحكم* بيّن هذا الاستعداد بوضوح، حيث يقول: "إن لله تجليين: تجلي غيب وتجلي شهادة، فمن تجلي الغيب يعطي الاستعداد الذي يكون عليه القلب، وهو التجلي الذاتي الذي الغيب حقيقته وهو الهوية التي يستحقها عن نفسه هو" (ابن عربي، د.ت: ج1، ص120).

والجدير بالذكر أن هذا التصور الاستعاري عن القلب ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: Πران على قلوبهمO (المطففين 83: 14)، والرين هو الصدأ، ففي هذه الآية الشريفة تمّت بنينة مفهوم القلب في ضوء مجال المرآة وخصائصها وما يطرأ عليها من الصدأ. ولابد

من صفاء القلب ونقائه وإزالة الصدأ الناتج عن الخبائث والرذائل لتتجلى فيه صفات الجمال والجلال.

رغم أن هذه المجموعة من الاستعارات تكشف عن البنية التصورية للأديب الصوفي لكنها بالمقارنة لما ورد في القرآن الكريم من الاستعارات التصورية حول «القلب»، تُظهر شيئا من التشابه والتشاكل مما يدلّ على جوانب من التأثر بالنص القرآني.

أما الاستعارات المعرفية التي تلعب دورا بارزا في خلق الشبكة الدلالية للقلب في *ترجمان الأشواق* فتتجلى في الخطاطة التالية:

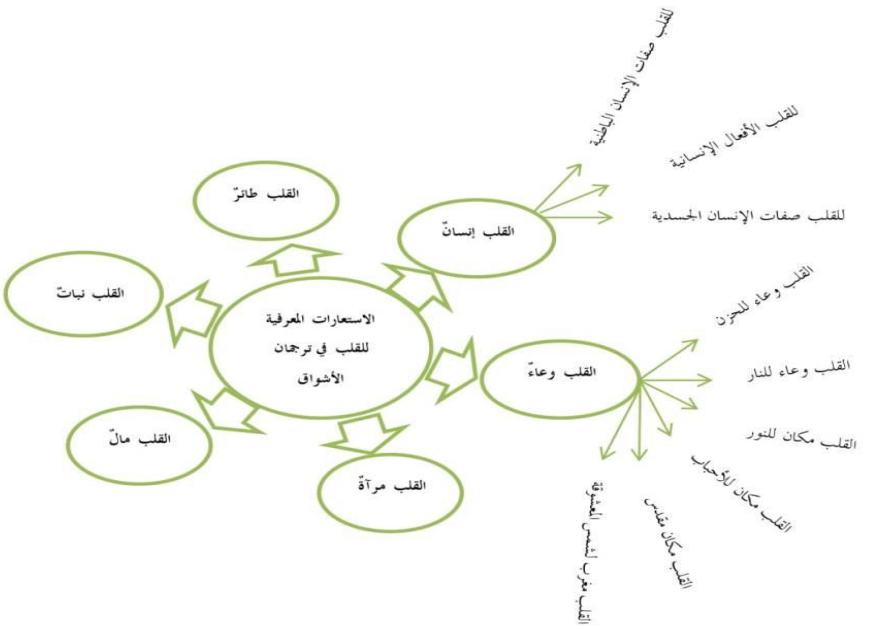

-الخاتمة:

شمل ديوان *ترجمان الأشواق* زخما من الاستعارات التصورية بأنماطها المختلفة، وتصنيف الاستعارات التي أبدعها ابن عربي وفقا لنظرية الاستعارات التصورية للايكوف وجونسون يبيّن لنا المنهجية الفكرية التي يتّبعها ابن عربي في التعامل مع المفاهيم التجريدية كالقلب، فقد حاول أديبنا الصوفي أن يستفيد من النظام المفهومي الكامن في أذهاننا لينقل من خلاله أفكاره وآراءه الصوفية في تجربته الغزلية في ديوانه، ويبني لنا تصورات جديدة. وقد خلق لنا الصور الإبداعية الذهنية بالاعتماد على تجربته الصوفية ومعارفه الإسلامية وجعل القلب في علاقة ذهنية مع مجموعة من الأشياء الأخرى ليسهل فهم القلب وإداركه وفق نسقه التصوري. وقد ركّز ابن عربي على القلب لأنه من اللبنات الأساسية في عالم الأديب وتسهم إسهاما كبيرا في عالم التصوف والعرفان.

تولّدت استعارات القلب في *ديوان الأشواق* مبنية على المفاهيم والصور الملازمة لحياتنا اليومية، كمفهوم الوعاء، والإنسان، والنبات، والطائر، والكائنات والأشياء المادية، مثل المال والمرآة وهذه الاستعارات أتاحت لنا فهم القلب انطلاقا من هذه المفاهيم، وتعدّ الاستعارة التصورية «القلب وعاء»، و«القلب إنسان» من أكثر الاستعارات حضورا في هذا الديوان، حيث أصبح القلب وعاء للأحاسيس كالحزن والأشجان، ووعاء للنار والنور ومكانا تسكن فيه المعشوقة، وتغرب فيه شمسها، كما أن القلب أصبح في نظام ابن عربي التصوري، إنسانا يتمتع ببعض صفات الإنسان أو يصيبه بعض الأعراض الجسدية والباطنية كالمرض، والجهل، والهيام، ويظهر منه بعض الأفعال الإنسانية. رغم أن الاستعارة القاعدية «القلب وعاء» و«القلب إنسان» كثير الاستعمال في العرفان الإسلامي متأثرا بالقرآن الكريم والأحاديث المروية، ولكن تجلياتها اللغوية في ديوان *ترجمان الأشواق* تكشف عن شخصية ابن عربي الأدبية في تجربة غزلية فريدة اعتبرها هو بنفسه إيحائية جريا على طريقته في التصوف.

المصادر:

- **القرآن الكريم**
- **نهج‌البلاغة**
- ابن عربي، محيي‌الدين بن علي. (1425هـ). **ديوان ترجمان الأشواق**. بيروت: دار المعرفة.
- ابن‌عربي، محيي‌الدين بن علي. (2009م). **ماهية القلب**. تحقيق قاسم محمد عباس. دمشق: دار المدى للثقافة والنشر.
- ابن عربي، محيي‌الدين بن علي. (د.ت). **فصوص الحكم**. بيروت: دار الكتاب العربي.
- ابن‌منظور، محمد بن مكرم. (1988م). **لسان العرب**. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- البوعمراني، محمد الصالح. (2009م). **دراسات نظرية وتطبيقية في علم الدلالة العرفاني**. تونس: مكتبة علاء الدين.
- الحراصي، عبدالله. (2002م). **دراسات في الاستعارة المفهومية**. عمان: مؤسسة عمان للنشر.
- الزبيدي، محمد بن محمد. (1994م). **تاج العروس من جواهر القاموس**. بيروت: دار الفكر.
- الزماني، كمال. (2015م). «الاستعارة في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ دراسة معرفية». **مجلة الدارسات اللسانية**. عدد10.
- الزناد، الأزهر. (2011م). **النص والخطاب؛ مباحث لسانية عرفنية**. تونس: دار محمدعلي للنشر.
- الزناد، الأزهر. (2010م). **نظريات لسانية عرفنية**، تونس: دار محمدعلي للنشر.
- سليمان أحمد، عطية. (د.ت). **الاستعارة القرآنية والنظرية العرفانية**. د.ن.
- لايكوف، جورج ومارك جونسون. (2009م). **الاستعارات التي نحيا بها**. تر: عبدالمجيد حجفة. المغرب: دار توبقال للنشر.

- مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (2011م).
المعجم الوسيط. ط5. مصر: مكتبة الشروق الدولية.

-lakoff, G.& Turner, M. (1989). P215 (in: Filiz DUR: Understanding Metaphor: A Cognitive Approach Focusing ON Identification AND Interpretation OF Metaphors IN Poetry. Thesis for the award of the degree of Master of Arts. Cukurova University the Institute OF Social Sciences. Adana, 2006.